الفصل الثالث

مراجعة الدراسات السابقة

تُعد مرحلة مراجعة الأدب السابق واحدة من الخطوات المهمة التي يمكن أن تدعّم البحث أو تعطل الفائدة المرجوة منه. فإذا تمت المراجعة بطريقة خاطئة ومشوهة فإن بقية أجزاء البحث ستكون مشوهة وذلك لأن الباحث لا يستطيع إجراء بحث ذي قيمة علميّة دون فهم الأدب السابق في نفس مجال موضوع البحث.

وقد لاحظ بوت وبيل (Boote & Beile, 2005) أن الباحثين ومنهم طلبة الدراسات العليا الذين يبحثون عن إرشادات أو مساعدة تعينهم في تحسين مراجعتهم للأدب السابق قد وجدوا توجيهاً ضعيفاً في المنشورات والأدلة السابقة الخاصة بقواعد البحث العلمي وأصول كتابته.

ومن أجل تسهيل مهمة الباحثين في استعراض ومراجعة الأدب السابق المتوفر يجب أن تبقى النقاط الآتية في الذهن قبل البدء في عملية المراجعة:

١. يعتبر جزء مراجعة الأدب السابق من أهم فصول البحث لأنه يعرّف، ويصف، ويقيّم، ويلخّص المعلومات المتوفرة حول موضوع الدراسة.

٢. يقدّم هذا الجزء تحليلاً للأدلة النظرية والتجريبية التي تدرس متغيرات البحث الحالي.

٣. يعكس مدى تمكن الباحث من موضوع بحثه وكذلك فهمه لمجال الدراسة الذي يتناوله، وقدرته على استخلاص المعلومات واستدعائها من مصادرها المتوفرة.

٤. يغطي معلومات حديثة في موضوع الدراسة، فعلى الرغم من وجود كتب ومراجع قديمة أو كلاسيكية تغطي الموضوع من الناحية النظرية، إلا أن دور الباحث يستمر في البحث عمّا كُتب حديثاً في نفس المجال. وقد ساعدت التقنية الحديثة في تسهيل مهمة الباحثين عند إنجازهم لهذا المتطلب (Fraenkel & Wallen, 2006; Fitt, Walker & Leary, 2009).

الغرض من مراجعة الأدب السابق

مراجعة الأدب السابق هي مرحلة تبيّن مدى معرفة الباحث بموضوع الدراسة، بما في ذلك مصطلحاته، والنظريات القائمة وراءها والمتغيرات ذات العلاقة بموضوع البحث والظواهر المتصلة به ومنهجية البحث الخاصة به وتاريخ دراسته. وتهدف كذلك لإخبار الباحثين الآخرين والقرّاء بتأثيرات وإسهامات الباحثين في مجال التخصص والتعرف على الأعلام والأسماء البارزة من الباحثين في تخصص معين. ويرى جال وبروغ وجال (Gall, Borg & Gall, 1996) أن مراجعة الأدب السابق تلعب دوراً مهمّاً في كل من النقاط الآتية:

١. تحديد مشكلة البحث وإعطاء مبررات لها.

٢. البحث عن مناطق جديدة في التخصص تصلح للبحث والدراسة.

٣. تجنب اتباع منهجية بحث غير مفيدة في دراسة ظاهرة معينة، وتجنب الوقوع في أخطاء الباحثون السابقون.

٤. التبصر بمناهج البحث المختلفة وطرق معالجة المتغيرات.

٥. التعرف على عدد من التوصيات التي يمكن أن تقود وتوجه الأبحاث المستقبلية.

٦. التمييز بين ما تم تنفيذه في البحوث السابقة وبين ما يجب أو ما سيجب عمله.

٧. فهم بنية الموضوع وتفصيلاته ومكوناته والأبعاد ذات العلاقة.
٨. ربط استنتاجات البحث التي يتم التوصل لها في فصل مناقشة النتائج بتلك الاستنتاجات التي تم التوصل لها من قبل باحثين سابقين.
٩. توحيد النتائج بين المعالجات والظروف المختلفة والتعميم بينها، والتوصل لروابط مشتركة بين التخصصات.

وبالتالي فإن إغفال الباحثين تضمين هذا الجزء في البحث أو تنفيذه بشكل ضعيف سيؤثر على تكوين أو بناء صلات قوية بينه وبين البحوث السابقة له، وسيصبح من المستحيل ربط البحث الحالي بالتراكم المعرفي في الموضوع.

خطوات تنفيذ مراجعة الأدب السابق

ينصح الباحثون في اتباع الخطوات المتسلسلة الآتية في إجراء مراجعة الأدب السابق:

أولاً: تكوين المشكلة

تبدأ هذه المرحلة بتحديد الأسئلة التي توجّه عملية المراجعة، فعلى سبيل المثال إذا كان الهدف منصباً على معرفة نواتج البحوث السابقة وما توصلت له؛ فإن السؤال الذي يمكن طرحه قد يكون:

من خلال الأدب السابق، ما تأثير المعالجة س على المتغير التابع؟

بينما إذا كان الهدف هو نقد وتحليل منهجية البحوث السابقة فإن السؤال قد يكون:

ما مناهج البحث التي استخدمت في السابق للتعامل مع الظاهرة ص؟ وما عيوب هذه المناهج وأوجه الضعف فيها؟

أما الخطوة الثانية الخاصة بتكوين المشكلة فتتمثل في تحديد معايير الاستبعاد أو التضمين، بمعنى آخر، تقرير أي البحوث سيتم إدخالها في المراجعة وتلك التي سيتم استبعادها.

ويقترح راندولف (Randolph, 2007b) المحكات التالية لتضمين البحوث الكمية السابقة في جزء مراجعة الأدب السابق:

١. يوفر البحث بيانات عن المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية أو معلومات كافية لحسابها وفق مجموعات الدراسة المختلفة.

٢. يوفر البحث بيانات ونتائج خاصة بمتغير واحد أو عدد من المتغيرات التابعة في الدراسة الحالية.

٣. يستخدم البحث أسلوب تحليل إحصائي معين.

والمعيار الذي يجب أن يبقيه الباحث في ذهنه هو ثبات الاختيار، والمقصود بذلك أنه لو أعطي باحث آخر نفس مجتمع الأبحاث الحالي لقام، على الأغلب - باختيار نفس الأبحاث التي تم اختيارها سابقاً لتضمينها في دراسته. وهذا يتحقق بوجود محكات للتضمين والاستبعاد تتصف بالوضوح وتخلو من الغموض.

ويجب أن يكون اهتمام الباحث منصباً على النوع وليس الكم، وعلى مقدار إسهام الدراسة السابقة في موضوع البحث الحالي أو أحد جوانبه؛ فمراجعة جميع الكتب والدراسات والأبحاث المنشورة في مجال معين يعتبر مضيعة للوقت في مقابل الفائدة المتحققة من اختيار المصادر التي لها صلة مباشرة بالبحث الحالي وتعطي مبرراً كافياً لإجرائها.

ثانياً: أسلوب جمع البيانات (جمع الأبحاث)

الهدف من جمع البيانات، التي تمثّل الأبحاث في حالتنا هذه، هو حصر شامل وممثِّل للأبحاث ذات العلاقة بموضوع البحث الحالي، ويتم ذلك من خلال مصادر

المعلومات الإلكترونية وقواعد البيانات المتوفرة وباستخدام الكلمات المفتاحية المناسبة. وبشكل عام، فإن البحث الإلكتروني في قواعد البيانات قد يفيد بحوالي ١٠٪ من الوصول إلى الأدب المتوفر، أما النسبة الباقية ٩٠٪ من المصادر فيمكن الوصول إليها من خلال قائمة المراجع المتوفرة في نهاية الأبحاث التي تم الحصول عليها. وبعد ذلك يحدد الباحث ما كان ذا علاقة منها ويحصل عليها، ثم يتفحص قائمة المراجع في البحوث التي حصل عليها ويرجع إليها، ويُكرِّر هذه العملية حتى يتوصل لمرحلة الإشباع التي تعني عدم وجود أبحاث جديدة تضيف شيئاً جوهرياً لما هو متوفر. وفي بعض الأحيان قد يقع بين يدي الباحث دراسات جديدة أثناء مرحلة جمع البيانات وتطبيق أدوات الدراسة، والمقترح في هذه الحالة تركها جانباً إلا إن كانت تضيف شيئاً جوهرياً ومميزاً لما هو متوفر.

وعند توفر عدد كبير من الدراسات في موضوع البحث، فعلى الباحث أن يبدأ بتصنيفها وقراءة ملخصاتها وعناوينها بعناية واختيار الدراسات ذات الصلة المباشرة منها بموضوعه؛ وبالتالي يتمكّن من استبعاد عدد من الأبحاث غير ذات العلاقة بموضوعه مع مراعاة الثبات والاتساق في الاختيار بين الباحثين الخبراء في نفس المجال.

ثالثاً: تقييم الأبحاث

في هذه المرحلة يبدأ الباحث بتقييم المعلومات المتوفرة في الدراسات السابقة التي سيتم تضمينها في البحث، والتي تم اختيارها وفق محكات واضحة وموضوعية تراعي ثبات واتساق الاختيار بين الباحثين لها. ويتمحور تقييم المعلومات حول الأبعاد التي تفيد في البحث الحالي، فعلى سبيل المثال يمكن أن يركّز المستخدم للبحوث التجريبية على أدوات القياس المستخدمة والأجهزة، والمتغيرات المستقلة والتابعة والوسيطة، وأسلوب تحليل البيانات، ونوع الضبط التجريبي المستخدم، في حين أن المستخدم لمنهجية بحث أخرى قد يركّز على خصائص مجتمع الدراسة وأسلوب اختيار العينة.

وعلى الرغم من إيضاح محكات اختيار الدراسات السابقة في هذا الفصل من الكتاب، إلا أن هناك نوعاً من الخلاف بين الباحثين حول تضمين بعض البحوث والدراسات ذات الجودة المتدنية، فالبعض يقول بتضمين جميع البحوث بغض النظر عن جودتها في حين أن البعض الآخر يميل لتضمين البحوث الجيدة منها فقط استناداً لمحكات تدل على طبيعة المعلومات المتوفرة فيها.

رابعاً: التحليل والتفسير

يقوم الباحث بتحليل المعلومات التي حصل عليها، ومن ثم يدمجها في جسم واحد مترابط يعكس خطوط الصلات بينها.

خامساً: العرض والتقديم

في هذه المرحلة يقرر الباحث أي المعلومات التي سيتم تضمينها وتقديمها للقرّاء، ولحسن الحظ فإن الرسائل الجامعية والأطروحات مرنة في بيان حجم المعلومات المعروضة، إذ أنها قد تعرض مقداراً أكبر من المعلومات الخاصة بالأدب السابق مقارنة مع الأبحاث المنشورة في المجلات العلمية أو تلك التي تقدم في المؤتمرات واللقاءات السنوية والتي تشترط الاختصار إلى أكبر قدر ممكن.

وكملخص لما عرض سابقاً، فإن مراجعة الأدب السابق ومشكلة البحث يجب أن تقود جميعاً لصياغة أسئلة البحث الحالي بطريقة سلسة ومنطقية، وستزود القارئ بتفسيرات وأدلة حول فائدة الأطروحة في مجال البحث العلمي، ومقدار الإضافة للتراكم المعرفي في مجالها.

ويوضح الشكل ١ التالي تسلسلاً يساعد الباحثين في تنظيم فصل الدراسات السابقة؛ حيث يبدأ المستوى الأول من جزء الدراسات السابقة بعرض تصنيفات ومجالات الدراسة بشكل عام دون الخوض في تفصيلاتها وهي ترتبط بشكل أكبر بموضوع الدراسة أكثر من مشكلتها، ثم ينتقل الباحث بالمستوى الثاني ليعرض الأعمال السابقة التي ترتبط

بالموضوع بشكل أكثر تفصيلاً، مقسماً إياها حسب متغيرات البحث، ويجب أن يتنبه الباحث إلى أن الانتقال من قمة الشكل إلى قاعدته سيمكّنه من الاقتراب شيئاً فشيئاً لمحور البحث الذي يتناوله، ويمكن أن يتضمن كل مستوى عدداً من الدراسات التي تخص متغيراً معيناً كأن تكون دراستان أو ثلاثة وفي بعض الأحيان عمل واحد فقط، والشرط الأساس في اختيارها هو صلتها بموضوع الدراسة الحالية مع ضرورة الانتباه لعمل تمهيد في بداية عرض كل مستوى والاختتام بجملة تمهّد للجزء التالي.

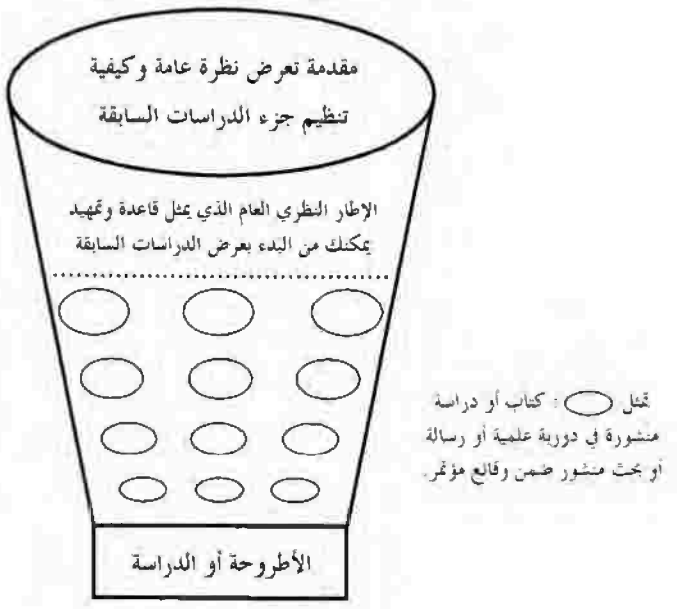

الشكل ١. تنظيم فصل الدراسات السابقة

وسنعرض فيما يلي بعض الأخطاء الشائعة التي يقع فيها الباحثون عند مراجعتهم للأدب السابق، والتي تؤثر بشكل واضح على الفائدة المرجوة من الدراسات السابقة في البحث:

١. لا يتم ربط نتائج البحوث السابقة بشكل واضح مع البحث الحالي.

٢. عدم أخذ الوقت الكافي في البحث من خلال مصادر المعلومات المختلفة، والاكتفاء بمصدر وحيد متوفر يتم الحصول عليه دون بذل أي جهد في مسح الأدب من المصادر الأخرى.

٣. الاعتماد بشكل كبير على المصادر الثانوية للمعلومات بدلاً من الرجوع لمصادرها الأساسية.

٤. قبول نتائج البحوث السابقة على أنها مصدّقة ولا تقبل النقد، وعدم مراجعة محتويات البحث من حيث تصميم وتحليل بياناته أو الاستنتاجات التي تم التوصل لها.

٥. إغفال بيان منهجية البحث وأسلوب جمع البيانات المتبع في البحوث السابقة.

٦. تضمين النتائج الإحصائية الرقمية دون تمحيصها، والاكتفاء بالقص للمعلومات وتضمينها في البحث على شكل نسخ ولصق لفقرات مبتورة من مصدرها الأصلي.

٧. لا يتم مناقشة التناقض في وجهات النظر السابقة، أو بيان أوجه الاختلاف بينها ورأي الباحث في ذلك.

٨. تخصيص قالب موحد لعرض الدراسات السابقة أو عدد معين من الأسطر، علماً أن مراجعة بعض الدراسات قد تحتاج لفقرة واحدة، في حين أن البعض الآخر قد يتطلب عدة فقرات، وما يحكم ذلك هو مدى أهمية الدراسة السابقة أو الفكرة السابقة في الدراسة الحالية.

٩. عرض ملخص الدراسات السابقة التي يتم الحصول عليها كاملاً كما ورد في مصدره، بدلاً من التركيز على ما له علاقة بموضوع البحث ومتغيراته.

١٠. البحث عن الدراسات السابقة التي تتناول جميع متغيرات الدراسة في آن واحد فقط، وبالتالي تظهر الدراسة الحالية على أنها تكرار لما سبق.

١١. الإشارة إلى عدم وجود دراسات عربية، أو حتى التعميم لأكثر من ذلك بعدم وجود دراسات في نفس المجال، خصوصاً أن الباحث لم يُجرِ تمحيصاً في أوعية مختلفة للمعلومات واكتفى بما هو متوفر بين يديه من مكتبات قريبة أو محركات بحث إلكترونية مجانية.